٣
عقبة بن عامر
مبعوث عمر إلى قواته فى الشام

نحن الآن فى رحاب سيرة صحابيٍّ جليل، وقائد من قادة الفتح الإسلامى، ووالٍ تحمَّل المسئولية، فحفظ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وعالمٍ وفقيه يرجع إلى أحاديثه الرُّوَاة المحدِّثُون، وفوق ذلك كله رجل مشهود له بالتقوى والإيمان منذ أن بايع النبى ﷺ ودخل فى الإسلام يوم قدوم النبى ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة.

هذا الرجل هو عقبة بن عامر الجُهَنِىُّ.

فكما تُحدثنا المصادر والروايات أن هذا الصحابى الجليل كان من الأوائل الذين جاءوا مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر بهدف تحريرها من الروم.. وكان للمسلمين خطة فى ذلك الفتح، مؤداها أن يقوموا بحصار الإسكندرية قبل أى إقليم آخر من أقاليم مصر ـ بعد فتح مصر ـ لغرضين من أغراض الحرب.

أولهما: لأن الإسكندرية كانت مكاناً تتمركز فيه القوة الحقيقية الضاربة للروم، واتخذت هذه القوة حصوناً شيدوها لذلك، أو كانت مَعَدَّة للدفاع عن مصر ضد أى هجمات تأتيها من ناحية البحر المتوسط، ولهذا اعتبرت الإسكندرية مفتاحاً لمصر من الجهة الشمالية.

وثانيهما: لقُرْب هذه المدينة أكثر من غيرها من المدن المصرية للقوات الرئيسية لدولة الروم، إحدى، القوتين العُظْمَيَيْنِ فى العالم القديم، وهو مايجعل مدَّها بقوات أخرى عبر البحر أمراً ميسوراً.

لهذا ولغيره من أسباب كانت خطة المسلمين بعد تحريرهم لمصر هى حصار

الإسكندرية أولاً قبل أى مدينة بمصر كلها، حتى يتيسر بعد ذلك استيلاؤُهم على بقية أقاليم مصر.

ولهذا أيضاً واصَلَ عمرو بن العاص حصاره للإسكندرية فترة من الوقت، موجهاً بعض قواته إلى عُمق مصر فى الأقاليم، حتى مصر الوسطى، وقد اختار أربعة من كبار القادة ليكونوا فى مقدمة هذه القوات المتوجهة إلى أقاليم مصر، وهم عقبة بن عامر الجهنى، وعبد الله بن حُذَافة السهمى، وخارِجَة بن حذافة العَدَوى، وعُمير بن وهب الحمى.

هؤلاء الأربعة ـ كما أشار عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقد كانوا من أقدر الرجال كفاءة، وهم أيضاً من الرجال المشهود لهم بحسن التصرف فى الشدائد والأزمات..

كان دور عقبة بن عامر بين هؤلاء الأربعة هو أن يقوم بتحرير عدد من القرى المنتشرة حول القاهرة أو ما عُرِفَ بعد ذلك بالفسطاط فيتم بذلك تحرير مصر كلها.. وقد فعل ذلك، فبقى مُحاصِراً لهذه القرى فترة، تم فيها لعمرو بن العاص تحرير الإسكندرية من الروم.

هذا الدور الذى اختير عقبة بن عامر للقيام به لم يكن سهلاً، فيكفى أن تطبق عليه قوات الروم، ومعهم أهالى هذه القرى، للقضاء على هذه القوة التى يقودها عقبة.

إن اختيار هذا الصحابى الجليل لهذه المهمة كان بناءً على ثقة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، ثقه ناتجه عن كفاءة واقتدار تميز بها عقبة، فهو رجل من أصحاب النبى ﷺ، بايعه وآمَنَ به بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، وفى ذلك يسجل ابن عساكر ـ مستنداً إلى مايقوله عقبة عن نفسه: «بَلَغَنى قدوم النبى ﷺ المدينة وأنا فى غُنَيْمةٍ لى، فرفضتها، وتوجهتُ إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يارسول الله بايِعْنى. فقال عليه الصلاة والسلام: بيعة أعرابية، أو بيعة هجرية! فبايعنى ﷺ».

ومن وقتها لازَمَ عقبة بن عامر رضى الله عنه النبى ﷺ، وكان من أصحاب

الصُّفَّة، المقربين الذين يقومون بخدمة النبى الكريم، حتى أنه كان يقود البغلة الخاصة بالنبى ﷺ فى الأسفار أو التوجه إلى الغزوات، وكثيراً ما كان النبى الكريم ينزل عن بغلته، ويأمر عقبة بن عامر بالركوب إشفاقاً عليه، ورحمة به، ليمشى ﷺ على رجليه.

وطبيعى أن يكون عقبة بن عامر رضى الله عنه ـ وهو الصحابى المقرب إلى النبى ﷺ ـ مُقَرَّباً لمن يجئ بعده من الخلفاء الراشدين خاصة أبى بكر الصديق، والفاروق عمر رضى الله عنهما. ففى عهد خليفة رسول الله أبى بكر رضى الله عنه، كان عقبة بن عامر من الرجال الموثوق بهم، والذين يُستعان بهم فى الكثير من الأمور المهمة، هذا إلى جانب أنه أَبْلَى بلاءً حسناً فى مناصرة أبى بكر فى حربه ضد المرتدين، وكان يفعل هذا مؤمناً بأنه إنما يفعله لمناصرة الإسلام، هذا الدين الذى اختاره عن رضا واقتناع، ويناصر نبيه الكريم، الذى رأى منه عن قرب مالم يره الكثيرون من الصحابة، فوقف على جوانب عدة من أخلاق هذا النبى الذى قال عنه القرآن: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] فقد كان حقاً وصدقاً على خُلُق عظيم بين البشر.

وفى عهد الفاروق عمر رضى الله عنه، كان لعُقبة بن عامردور فى الفتوحات الإسلامية، فإلى جانب دوره الكبير فى تحرير مصر كان له دور عظيم فى فتح الشام، لقد كان المبعوث المُؤْتَمَن بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقواته فى الشام، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه فى أثناء فتح دمشق قطع الطريق بينهما وبين المدينة المنورة فى سبعة أيام. لتبليغ المؤمنين بما أنجزه المسلمون هناك من انتصارات، ورجع إلى دمشق عائداً من المدينة فى يومين ونصف يوما ببركة دعائه عند قبر النبى ﷺ، وتشفُّعِه به فى تسهيل صعوبات الطريق.

وإذا كانت لعقبة بن عامر إسهامات جليلة فى الفتوحات الإسلامية، فله إسهامات أخرى فى مجال العِلم والمعرفة. فيقول عنه أبو سعيد بن يونس، أحد الرواة الموثوق بهم:

---

(١) سورة القلم ـ الآية الرابعة.

«كان عقبة بن عامر الجهنى قارئاً عالماً بالفرائض والفقه، صحيح اللسان، شاعراً كاتباً، وهو آخر مَنْ جَمَعَ القرآن الكريم، حيث يذكر المؤرخون أنهم رأوا مصحفاً فى مصر على غير كتابة مصحف عثمان، وقد ذُيِّلَ فى آخره عبارة: كَتَبَهُ عُقبة بن عامر».

ولذلك نجد أهل مصر يثقون به، ويستمعون إليه، ويحفظون عنه، فيذكر ابن تغرى بردى: «أن لأهل مصر فيه اعتقاداً عظيماً، ولهم عنه نحو مائة حديث شريف..».

وقد ذكر ابن عبد الحكم أحاديث عقبة بن عامر رضى الله عنه التى رواها عنه أهل مصر، ومنها: «مَن توضَّاء فَأَحْسَنَ وضوءه، ثم صَلَّى غير ساهٍ ولا لاهٍ كُفِّر عنه ما كان قبلها من سيئاته».

وقال عقبة بن عامر رضى الله عنه: «كنت آخُذُ بزمام بغلة النبى ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: ياعقبة ألا تركب؟ فَأَشْفَقْتُ أن تكون معصيةً.. فنزل رسول الله ﷺ وركبتُ هُنَيْهَةً. ثم ركب عليه الصلاة والسلام فقال لى: هل لا أُعَلِّمُكَ سورتين؟ فقلت بَلَى يارسول الله.

فَأَقْرَأَنى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم أُقيمت الصلاة، فتقدم وصَلَّى بهما وقال: اقرأهُما كلما قُمْتَ ونمت..».

ولقد تولى عقبة بن عامر رضى الله عنه ولاية مصر من قِبَل معاوية بن أبى سفيان، خلفاً لأخيه عتبة بن أبى سفيان فى سنة أربع وأربعين هجرية، فكان من الثمانين صحابياً الذين وقفوا على قبلة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط.

وقد كتب وهو وال على مصر إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله أرضاً يبنى فيها منازل ومساكن، فأمَرَ له معاوية بألف ذراع.. هذه الأرض التى خصَّصَها له معاوية تقع فى محافظة الجيزة الآن، وبالتحديد بجوار منطقة الدقى، والتى عُرِفَتْ وقتئذ «بمنية عقبة» حيث كانت كلمة «منية» تعنى ميناء، لأن هذه المنطقة كانت واقعة فى ذلك الوقت على الشاطئ الغربى للنيل قبل تحوله قليلا إلى الشرق، ثم حُرِّفت كلمة «منية عقبة» فأصبحت تُعْرَفُ الآن «بميت عقبة» نسبة إلى هذا الصحابى الجليل.

ويذكر الرواة المؤرخون أن فتره ولاية عقبة بن عامر على مصر استمرت ثلاث سنوات، من بعدها تولى ولاية مصر مَسْلَمة بن مُخَلَّد، من قِبَل معاوية بن أبى سفيان أيضاً.

ولقد اكتنف عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلَّد ولاية مصر أسلوباً من أساليب معاوية بن أبى سفيان الملتوية، بدأه بأن طلب من مسلمة بن مخلد أن يكتم نبأ توليه أمر مصر خلفاً لعقبة بن عامر، مُسَيِّراً إيَّاه إلى مصر، وفى الوقت نفسه آمِراً عُقبة بغزو «رُودَس» مستعيناً بمسلمة بن مخلد وخرج الاثنان: عقبة بن عامر، ومسلمة بن مخلد إلى الإسكندرية، وتوجها ـ كما أمَرَهُما معاوية ـ إلى «رُودَس» عن طريق البحر. فلما انشغل فى الأمر عقبة استولى مَسْلَمَه على سَرِير إمْرَته وولايته كما رسم له معاوية بن أبى سفيان، وعندما بلغ عقبة بن عامر هذا الأمر قال غير آسفٍ على ماحدث: «مالى أرَى الأمر أبطأ علىَّ!»، إشارة إلى أنه كان ينتظره، حتى يتحرر من تبعات الولاية وما قد تجلبه على صاحبها من آثام ربما لايكون له ذنب فيها اللهم إلا أنه أصبح مسئولا عن أمر المسلمين.

والحق أن طريقة معاوية بن أبى سفيان فى عزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلَّد رضى الله عنهما. كانت لا تخلو من مكر مصدره معاويه بالطبع. وأقل مايقال عنها بأنها واحدة من الأساليب الملتوية لمعاوية بن أبى سفيان، فضلا عن كونها تنافى تماماً الكثير من القواعد المرعية فى مثل هذه الأحوال، خاصة أنها تتعلق بصحابى جليل مثل عقبة بن عامر، وهو مَنْ هو؟ إنه أحد المقربين إلى النبى ﷺ وخلفائه من بعده.

وهناك من الروايات والمراجع التاريخية ما يقرر أن معاوية فعل ما فعل لأنه أدرك ما لعقبة بن عامر من قبول واستحسان، وحُبّ وولاء من المصريين، مما أصبح خطراً عليه، فقد يستطيع أن يستقل بمصر منفصلاً عن الدولة الإسلامية.

وعلى أى حال مهما يكن ما لدى معاوية من أسباب ومسببات لعزل عقبة بن عامر وتولية مسلمة بن مخلد، فإن ذلك لايتيح له أن يسلك معهما مثل هذا الأسلوب الملتوى.

وبعد هذا العزل غير الكريم.. أقام عقبة بن عامر بمصر مدة عشر سنوات، فلم يبرحها عائداً إلى المدينة المنورة، حتى توفى سنة ثمان وخمسين هجرية، لِيُدْفَنَ فى القرافة الكبرى، وليكون قبره مزاراً يتبركُ به الخَلَفُ عن السَّلَف لورع صاحبه وتقواه، وجهاده فى سبيل الإسلام.

* * *